وكانت مجالس الشيخ في دار عبد الرحمن رائعة حقًّا، يمتلئ لها قلب المضيف غبطة وسرورًا، فكان الشيخ إذ صُليت العصر اتخذ مكانه في صدر هذا الفناء الذي كان ينبسط أمام الدار، وأخذ أصحابه يفدون فيجلسون من حوله حتى يمتلئ بهم هذا الفناء. وقد أحس أهل الحي أن في دار عبد الرحمن عيدًا أو شيئًا يشبه العيد، وأنه سيتصل ويمتد أيامًا، فكان أغنياؤهم وأوساطهم يقبلون ليشاركوا في هذا العيد من قرب، وكان فقراؤهم وذوو الحاجة منهم يقبلون ليشاركوا في العيد من بعد. يجتمعون جماعات متكاثفة خارج الدار وهم يذكرون الله ويسبحون بحمده وقد ينجم من بينهم الشيخ ذو الصوت الحسن فيغني لهم شيئًا من شعر الصوفية، أو الفتى ذو الصوت العذب فيغني لهم شيئًا من أغاني القاهرة. وكانوا على كل حال في فرح ومرح، يطربون هذا الطرب الغريب الذي هو مزاج من العبادة واللهو البريء معًا. وكان الشيخ يعجبه ما يرى من ذلك وما يسمع، وكان كثيرًا ما يقطع حديثه أو حديث بعض جلسائه ليصغي إلى هذا الصوت أو ذاك، وليسمع لما كان يبلغه من حديث القوم ولما كان يدعو إليه هذا الحديث غالبًا من الضحك والصياح.

وكان زوار الشيخ من أهل المكانة في القاهرة يقبلون لزيارته، منهم من كان يقبل راكبًا بغلته يسعى بين يديه غلام من غلمانه، ومنهم من كان يأتي راكبًا عربة تجرها الخيول المطهمة. وكان مجيء هؤلاء الناس جميعًا يثير في نفوس هذه الجماعات كثيرًا من العجب وكثيرًا من الرضا، وكثيرًا من الفرح أيضًا، ولم يكن بين هؤلاء الزائرين على اختلاف طبقاتهم ومراكزهم زائر إلا طرح كبرياءه وطبقته ومركزه عند باب الدار، ثم أقبل ساعيًا متواضعًا منخفض الرأس. فإذا دنا من الشيخ حياه ولثم يده، وجلس حيث يشير إليه الشيخ أن يجلس. وقليل منهم كان يستطيع أن يبدأ الشيخ بالحديث، وإنما كانوا جميعًا يتخذون مجالسهم في صمت، ويستقرون فيها لا يأتون حركة، ولا يديرون ألسنتهم في أفواههم، إلا أن يدعوهم الشيخ إلى شيء من ذلك بما يلقي عليهم من سؤال أو يسوق إليهم من حديث.

وكانت نفس الشيخ تصفو في مجلسه هذا للناس جميعًا صفاء ممتازًا، يصل إلى قلوبهم فيملؤها حبًّا وإكبارًا. وكان صوته يعذب عذوبة رائعة تخلب أسماع الذين يحيطون به ويصغون إليه. وكثيرًا ما كان الشيخ يفاجئهم مفاجآت تملأ قلوبهم روعة وإيمانًا، فهو يتحدث إلى فلان أو فلان من جلسائه في شئونه الخاصة أو في الشئون العامة، ولكنه يقطع حديثه فجأة ويطرق إطراقة خفيفة، ثم يرفع إلى الناس وجهًا